﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ
يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ
ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

[القيامة: 36 - 40]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من بيانِ حالِ المُكذِّبِ إلى بيانِ أوهامِهِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السابقةُ حالَ المُعرِض المُكذِّب وما صدر عنه من أفعالٍ رديّةٍ، وأتبعت هذا البيان بذِكْر الوعيد والتَّهديد له بسبب أفعاله، وكان ذلك في نهاية السّورة؛ ناسب أن تُختمَ السورة الكريمة بتقريرِ تمامِ القدرةِ، والإنكارِ على مَن يشكُّ في كمالِها وتمامها، فإنَّهُ تعالى قديرٌ على أن يُحيي الموتى كيف أراد دفعةً واحدةً، أو في أوقاتٍ متعاقبةٍ، فيُقيم القيامة، ذلك أنَّ كمالَ عزَّتِه وجلالِه وعظمتِه أنَّه تعالى على كلِّ شيءٍ قدير[1]، فهو انتقالٌ من بيان حال المُكذِّب، إلى بيان ما يظنُّه من اعتقاداتٍ وأوهام تقوده إلى حتفِه وهلاكه.

ذِكْـرُ نهايةِ العالمِ في بدايةِ السّورةِ وبدايته في نهايتِها

ومن المناسبة اللطيفة بين مبدأ السورة وختامها، أنَّ المبدأ كان في ذِكْر القيامة التي هي نهاية العالم، وفي نهاية السورة كان ذِكْر خلق الإنسان وهو بداية الاستخلاف في العالم، فذَكَرَ في بداية السورة نهايةَ العالم، وفي نهايتها بدايته، وهذا من لطيف التّناسُب بين المَطْلع والختام.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُدًى﴾: (سدو) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إهمالٍ وذهابٍ على وجهٍ. من ذلك السدوُ، وهو ركوبُ الرَّأسِ في السَّيرِ[2]. وأسْدَيْتُ إبلي

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 114 - 118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سدو).

إسّداء إذا أهْمَلْتها[1]، ومنه السَدْوُ: مَدُّ الإبلِ في سيرها بأيديها وتذرُّعها في المشي واتساع خطوها. ناقةٌ سَدوٌّ: تَمُدُّ يديْها في سَدْوها وتطرحهما، وركوب الإبل والخيل رأسَها في سيرها فتطّردُ في سيرها إلى حيث تريد هي، لا تنقاد لأحد، والمُرادُ بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؛ أيْ: مُهملًا غير مأمورٍ ولا منهيٍّ، سادِرًا مُسترسِلًا في ارتكابِ ما يشاءُ باستغلاظٍ، لا يُقيّدُه أو يضبطُه أمرٌ أو نَهْيٌ أو حسابٌ[2].

2) ﴿مَّنِيّ يُمْنَىٰ﴾: الميمُ والنّونُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على تقديرِ شيءٍ ونفاذِ القضاءِ بهِ. ومنه قولُهم: مَنَى له الماني؛ أيْ: قَدَّرَ المُقَدِّرُ. وماءُ الإنسانِ مَنيٌّ؛ أيْ: يُقَدَّرُ منه خِلقَتُهُ. والمَنيَّةُ الموتُ؛ لأنَّها مُقدَّرةٌ على كُلٍّ[3]. والمَنيُّ فعيلٌ بمَعْنَى مَفْعولٍ، واسْتَمْنَى الرَّجُلُ اسْتَدْعَى مَنيَّهُ بأمْرٍ غَيْرِ الجِماعِ حَتَّى دَفَقَ[4]. وفي قولِه: ﴿مَّنِيّ يُمْنَىٰ﴾ ثَلاثَةُ أوْجُهٍ: أحَدُها: أنَّ مَعْنى يُمْنى: يُراقُ، الثّاني: بمَعْنى يَنْشَأُ ويَخْلُقُ، الثّالِثُ: أنَّهُ بمَعْنى: يَشْتَرِكُ؛ أي: اشْتِراكُ ماءِ الرَّجُلِ بماءِ المَرْأةِ[5].

3) ﴿فَسَوَّىٰ﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بين شيئَيْنِ، يُقال: هذا لا يُساوي كذا؛ أيْ: لا يُعادِلُه. وفلانٌ وفلانٌ على سويَّةٍ من هذا الأمر؛ أيْ: سواءٍ[6]. وسَوَّيتُ الشيءَ فاستَوى؛ أيْ: قَوَّمْتُهُ فاستَقامَ واعتدلَ[7]. والسَّويُّ يُقالُ فيما يُصانُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ من حيث القَدْرُ والكيفيَّةُ، ورَجلٌ سويٌّ: استوت أخلاقُه وخِلقتُه عن الإفراطِ والتّفريطِ[8]. والتَّسْويَةُ: جَعْلُ الشَّيْءِ سَواءً؛ أيْ: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، والمُرادُ هَهُنا بقوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾؛ أيْ: فجَعَلَهُ جَسَدًا من عَظْمٍ ولَحْمٍ[9].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سدا).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سدو - سدى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مني).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (مني).
(5) الماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 160.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(8) الرّاغب، المُفردات: (سوا).
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 368.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ابـتـداءُ الخَـلـقِ وتـدرُّجُ مراحلِهِ أقـــوى بـراهـيـنِ البعثِ ودلائلِهِ

تُبيِّن الآياتُ الكريمة براهينَ الخَلقِ لمُنكري البعث والحساب والجزاء، الذين يظنّون ظنًّا خاطئًا أنَّهم متروكون هَمَلًا بلا حسابٍ أو جزاءٍ، وذلك لأنَ العاقلَ لا يَرضى لنفسه أن ينزلَ إلى مرتبةِ الحيوانِ، وأن يُنْظَرَ إليه نظرةَ مَنْ يُعفى من تَبعةِ أعماله، فتلك حالٌ لا يصيرُ إليها الإنسانُ إلّا إذا كانَ ناقصَ الأهليةِ أو فاقدها. ولذا فقد جاءَ البرهانُ ببيانِ طلاقةِ القدرةِ على البعثِ بالتذكيرِ بأصلِ خلقهِ من نطفةٍ، ثم أعطاه اللّه تعالى الصفة الوظيفية التي يقوم بها، فجعل منه الذَّكرَ والأنثى، وبهما معا يكملُ نوعُ الإنسان، وتكون له القدرة على أداء وظيفته فى الحياة. ثم جاءتْ خاتمةُ السورةِ لتنصَّ على القضية التي نصبت لها تلك الأدلة، وكانت السورة كلها معارض لتلك القدرةِ، بسؤالٍ بليغٍ: أليسَ ذلكَ الإلهُ الذي خلقَ الإنسانَ من نطفةٍ، بقادرٍ على أن يُحيي الموتَى؟ ليقع الإيجاب المُلزِم لكلِّ ذي عقلٍ، إذا هوَ استجابَ للحقِّ، وأذعنَ لمنطقِ العقلِ، ولم يغلبْه الهوَى، أو يستبدَّ به العنادُ. وبهذه الآيةُ تختتمُ السورةُ، التي كان عنوانُها (القيامة)، فإنَّه لا قيامةَ إذا لم يتقرَّرْ إمكانُ بعثِ الموتَى من القبورِ، فإذا تقرَّر ذلك، لم يكن الإخبارُ بأن هناكَ بعثًا وقيامةً حسابًا وجزاءً بالأمرِ الذي يُمارَى فيه، أو يقعُ موقعَ الشَّكِ أو الإنكارِ؛ بل تتلقَّاه العقولُ والقلوبُ بالتسليم والإذعانِ لربِّ القيامةِ سبحانه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ الآياتِ عمّا سبقَها:

ردُّ ظـنِّ المُكـذِّبِ بـأن يُـترك سدًى من عواقبِ إنكارِ البعثِ

فصلَ القرآن المجيد قولَ اللّه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ عن قولِه سبحانه: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1343 - 1348.

لأنَّ الآيةَ وقعتْ استئنافًا ابتدائيًّا، عادَ به الكلامُ إلى الاستدلالِ على إمكانِ البعث وهو ما ابتُدئَ بهِ، فارتبطَ بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ في صدرِ السورةِ، فكأنَّه قيلَ: أيحسبُ أنْ لنْ نجمعَ عظامَه؟ ويحسبُ أنْ نتركَه في حالةِ العدمِ مُهمَلًا. وزيدَ هنا أنْ مُقتضى الحكمةِ الإلهيَّةِ إيقاعُهُ بقوله: ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[1].

بَلاغةُ الاستفهامِ ونَوعُه وغَرضُه:

مُقتضى إنكارِ اعتقادِ المُكذِّب إثباتُ الغايةِ التي لأجلِها خُلقَ الإنسانُ

جاءَ الاستفهام بالهمزة في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ للإنكارِ والتوبيخِ والتوقيفِ[2]، وهو استفهامٌ مجازيٌّ لصدورِه عن اللّه سبحانه، والمُرادُ إنكارُ ذلك الحسبانِ؛ أيْ: حسبانُ الإنسانِ الكافرِ أنَّه غيرُ مُكلَّفٍ، وأنَّ ما يفعله لا جزاءَ ولا عقابَ عليه، فهو لإنكار الواقع من التكذيبِ بالتكليفِ والبعثِ، وفيه كذلك من التهديد الخفيِّ والوعيدِ غير المباشرِ ما يردعُ الإنسانَ المُكذِّبَ عن هذا الحسبانِ الأثيمِ، وفيه كذلك تجهيلٌ لِمَن حسبَ هذا الحسبانِ، إذ لم يقدرْ حكمة اللّه وقدرته حقَّ قدرهما، ومُقتضاه أنَّ الإنسان خُلِق ليعبُدَ ويعمل بالأمر الإلهيّ والإرشاد الرّبانيِّ.

نكتةُ إيثارِ التعبيرِ بمادَّةِ الحُسْبان:

في التعبيرِ بالحُسْبانِ مواجهةٌ لاعتقادٍ باطلٍ ترسَّخَ في نفوسِ المُنكرينَ

آثرَ النَّظمُ التعبيرَ بمادَّةِ الحُسْبانِ دونَ الظَّنِّ؛ وذلك لأنَّ الحُسْبانَ ظَنٌّ، ولكنَّه يزيدُ على مجرَّدِ الظَّنِ الاعتدادَ بالمعنى الذي وقَعَ عليه الحُسْبانُ؛ أيْ: تعليقُ رجاءٍ وأملٍ عليه لجلبِ نفعٍ، أو دفعِ ضُرٍّ[3]، أو بعبارةٍ أجمعَ: أنَّ الحُسبانَ يُدخلُ الشيءَ الذي وقع عليه الظَّنُّ في حِسابِ الظّانِ الحاسِبِ، ويَجري على مُقْتَضاه سلوكُه في الحياةِ إيجابًا وسَلبًا. أمّا الظَّنُّ فقد يكونُ مجرَّدَ خاطرةٍ لا صلةَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 364.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 407، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 165.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن: 4/ 321 - 322.

لها بحساباتِ الإنسانِ العَمَليَّةِ، وعلى هذا يكونُ النَّظمُ هنا مواجهًا لسلوكٍ عَمَليٍّ نشأ عن اعتقادٍ باطلٍ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ آثَرَ القرآن المجيد التعبيرَ بالفعلِ (يَحْسَبُ) في صيغةِ المُضارعةِ، وعدَلَ عن التَّعبيرِ بصيغةِ المُضيِّ فلم يقلْ: (أحسبَ الإنسانُ أن يُترك سُدًى)، وذلك ليعمَّ الإنكار كلَّ الأوقات، متى وكيف وقع ذلك الحُسْبان، وللدلالةِ على أنَّهُ حُسْبانٌ مستمرٌ لا ينقطعُ في نفوس المُكذِّبينَ.

إنكارُ الحُسْبانِ الآثمِ بعدمِ التّكليفِ والبعثِ على الدّوامِ ليعُمَّ جميعَ الأوقاتِ

دلالةُ إسنادِ فعلِ (يَحْسَبُ) إلى الإنسانِ:

أسندَ القرآن المجيد فعل (يَحْسَبُ) إلى الجنس كله؛ لأن أكثر الناس كذلك لغلبة الحظوظ على العقل إلّا مَنْ عصم اللّه[2]، والمُرادُ من يحسَبُ ذلك من جنسِ الإنسانِ، وهو كافٍ في إسنادِ الفعلِ إلى الجنسِ، وذلك بإسنادِ ما للبعضِ للكلِّ، وهذا جارٍ في (النَّفسِ اللَّوّامةِ) في صدرِ السورةِ إذا أُريدَ بها الجنسُ، فلا يلزمُ الإقسامُ على النفسِ الفاجرةِ[3].

غلبةُ إنكارِ البعثِ على جنسِ الإنسانِ لغَلَبَةِ الطَّمعِ في حظوظِ الدنيا

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾:

لامُ التعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ للجنسِ[4]؛ أيْ: هذا النوع الذي يقبلُ على الأُنْسِ بنفسهِ والنظرِ في عَطِفِه والسرورِ بحسبه[5]، وقال كثيرٌ منهم: المُرادُ الإنسانُ الكافرُ المُكذِّبُ، فقال جمع من الأصوليّين: بل المُرادُ بالإنسان: المُكذِّب بالبعثِ على الإطلاق[6].

الراجحُ أنَّ التعريفَ للجنسِ ليشملَ كلَّ إنسانٍ لشمولِ القيامةِ للخلقِ أجمعينَ

(1) الرّاغب، المُفردات: (حسب) و(ظن).
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 87.
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 465، وشيخ زاده، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 8/ 413.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 64، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 403.
(5) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 86.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 722.

وقالوا: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وإن كانَ تعريفه هنا تعريفَ الجنسِ الذي يصدقُ على جميعِ الأفرادِ، فهو من العامِّ المُرادِ به الخاصُّ؛ أيْ: الإنسانُ الكافرُ، وإطلاقُ العامِّ مع إرادةِ الخاصِّ من المجاز المرسل، والعلاقةُ المختارةُ فيه هي الإطلاقُ والتقييدِ، يعني: أطلقَ العامَّ من دلالتهِ على العمومِ، وأُعيدَ تقييدُهُ بالدَّلالَةِ على الخصوصِ[1].

نُكتةُ تكرار ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في بدايةِ السّورةِ ونهايتها:

كرَّر القرآن المجيد عبارةَ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في قولِ اللّه تباركتْ آلاؤه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ بعد وُرودها في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ لتكريرِ إنكارِ البعثِ والحشرِ، مع تضمُّنِ الكلامِ الدلالةَ على وقوعِه، حيث إنَّ الحكمةَ تقتضي الأمرَ بالمحاسنِ والنَّهيَ عن القبائحِ والرذائلِ، والتكليفُ لا يتحقَّقُ إلا بمجازاةٍ، وهي قد لا تكونُ في الدنيا؛ فتكون في الآخرةِ[2]. وفي الإعادة كذلك تهيئةٌ لما سيعقبه من دليلِ إمكانِ البعثِ من جانبِ المادَّة بقولِه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ إلى آخر السورة. فقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ تكريرٌ وتعدادٌ للإنكارِ على الكافرينِ تكذيبَهم بالبعثِ، لوقوعه بعد وصفِ يومِ القيامةِ وما فيه من الحسابِ على ما قدَّم الإنسانُ وأخَّر. ومعنى هذا مثل قولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: 115][3].

التكريرُ لبيانِ عِظَمِ قدرِ المجازاةِ على الأعمالِ

نكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المُؤوَّلِ:

التَّعبير بالمصدرِ المُؤوَّلِ دون الصَّريح في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ لما فيه من الدلالةِ على الزَّمنِ، فضلًا عن الدلالةِ على الحدثِ، ففيه بيانٌ لرغبةِ الإنسان في

رغبةُ المُكذِّبِ في استمرارِ فسادِه الدُّنيويِّ دون حسابٍ أخرويٍّ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن: 4/ 321.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 5/ 268، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 165.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 365.

الاستمرارِ في الفسادِ حالَ كونِه في الدنيا، دونَ محاسبةٍ أو عقابٍ في الدنيا والآخرةِ.

دلالةُ بناءِ فعلِ ﴿يُتْرَكَ﴾ لِلمفعولِ:

المُكذِّبُ بيومِ القيامةِ يريدُ أن يعيثَ في الأرضِ فسادًا دونَ رقيبٍ أو حسيبٍ

في قولِ اللّه تباركتْ آلاؤه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ جاءَ الفعلُ ﴿يُتْرَكَ﴾ مبنيًّا لِما لمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ الحاملَ على الجراءةِ مُطْلَقُ التَّركِ هَمَلًا، لا كونُ التَّركِ من مُعَيَّنٍ[1]؛ أيْ: يكون تركُهُ بالكليَّةِ، فكأنَّ المُكذِّب بيومِ الآخرةِ يحسبُ أنَّهُ خالٍ من كلِّ قيدٍ أو شرطٍ، فهو يريدُ أنْ يعيثَ في الأرضِ فسادًا دونَ حسيبٍ أو رقيبٍ. وكذلك ففي البناءِ للمفعولِ إيجازٌ يلائمُ بلاغةَ النَّظمِ الشَّريفِ؛ فعدلَ عن مُقتَضى الظّاهرِ وهو (أيحسبُ الإنسانُ أنْ يتركَهُ اللّه سُدًى)؛ لأجلِ العلمِ بالفاعلِ من قولِه السابق: ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؛ فكأنّه قال: أيحسب الإنسانُ أن نتركَهُ دونَ بعثٍ وأن نهملَ أعمالَه سُدًى[2].

بَلاغةُ المجازِ في فعلِ التَّرْكِ:

الحكمةُ الإلهيَّةُ تقتضي عدمَ التركِ، بل الحسابُ بالنّقيرِ والقطميرِ

الأصلُ في معنى التَّركِ: مفارقةُ شيءٍ شيئًا اختيارًا من التّاركِ، ويُطلَقُ مجازًا على إهمالِ أحدٍ شيئًا وعدمِ عنايتِه بأحوالِه وبتعهُّدِه، وفعل الترك في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ مستعملٌ في المعنى المجازي[3]. إذ لا يليق بحكمته تعالى أنْ يعطيَ القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المفاسد، وجوازُ الإهمالِ والتركِ يقتضي كونه تعالى راضيًا بقبائحِ الأفعالِ، وذلك لا يليق بحكمته، فإذًا لا بدَّ من التَّكليفِ، والتكليفُ لا يَحسنُ ولا يَليقُ بالكريمِ الرَّحيمِ إلّا إذا كانَ هناك دارُ الثَّوابِ والقيامةِ[4].

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 114.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 365.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 365.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 737، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 465، وشيخ زاده، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 8/ 426، والشّهاب، عناية القاضي: 9/ 348.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿سُدًى﴾:

رغبةُ المُكذِّبِ في أن يكونَ هائمًا على وجهِهِ يُشبه صنيعَ البهائمِ

آثر النَّظم الكريم استعمال مُفرَدة ﴿سُدًى﴾ في قولِ الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؛ لما فيها من الدلالةِ على الإهمال والذهابِ على أيِّ وجهٍ كانَ[1]. إذ من معاني السَّدوُ ركوبُ الإبلِ والخَيلِ رأسَها في سيرِها؛ فتطَّردُ في سيرِها إلى حيثُ تُريد هيَ، فلا تنقادُ لأحدٍ[2]، وهذه المُفرَدة تُصوِّر واقعَ الإنسان المُكذِّب، بأنّه يريد أن يكون مُنفلتًا عن أيِّ قيدٍ أو ضابطٍ، كحال البهائم التي تسير على وجهها لا تُدرك أنّها تسير في حتفها.

بَلاغةُ فنِّ الإدماجِ:

مُقتَضي الحكمةِ أن يُبعث الإنسانُ للجزاءِ

جاءَ ذِكرُ ﴿سُدًى﴾ هُنا على طريقةِ الإدماجِ فيما سيقَ له الكلامُ، إيماءً إلى أنَّ مُقتضَى حكمةِ خلقِ الإنسان أن لا يتركَه خالقُه بعدَ الموتِ فلا يُحييه ليجازيَه على ما عملَهُ في حياته الأولى[3].

بَلاغةُ الكنايةِ والتعريضِ:

التكليفُ في الحياةِ الدُّنيا مقصودُهُ الجزاءُ في الآخرةِ

معنى قوله تعالى: ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؛ أيْ: لا يحسب أن يُترك غيرَ مَرعيٍّ بالتَّكليفِ كما تُتركَ الإبلُ، لا يُؤمرُ ولا يُنهى. وقد تبيَّن من هذا أنَّ قولَه: ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ كنايةٌ عن الجزاءِ؛ لأنَّ التَّكليفَ في الحياةِ الدُّنيا مقصودٌ منه الجزاءُ في الآخرةِ[4]، وفي الكناية تعريضٌ بالمُكذِّبين، بأنَّ جزاءهم سيكون عادلًا قاهرًا، لإصرارهم على التَّكذيب بيوم البعث، ومُضيِّهم في مُلهيات الحياة الدُّنيا.

نُكتةُ فصلِ قولِه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾:

الاستدلالُ بالإبداءِ على الإعادةِ إعادةٌ في الاستدلالِ على الإعادةِ

فصلَ القرآن المجيد قولَ الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾؛ لأنَّهُ اسْتِئْنافٌ وارِدٌ لإبْطالِ الحُسْبانِ المَذْكورِ، فإنَّ مَدارَهُ لَمّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سدو).
(2) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سدى).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 365.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 366.

كانَ اسْتِبْعادُهم لِلْإعادَةِ دفعَ ذلك بالاستدلالِ ببَدْءِ الخَلقِ[1]، فأعادَ البرهان على المعادِ بأمرٍ يجمعُ القدرةَ والحكمةَ، وذلك أنَّه لا يجوزُ في عَقلِ عاقلٍ أن صانعًا يصنعُ شيئًا ويتركُه ضياعًا وهو حكيمٌ أو حاكمٌ، فكيفَ بأحكمِ الحُكماءِ والحاكمينَ، فجاءتِ الآيةُ لتُنكِرَ على المُكذِّبِ ظنَّه أنَّه يهملُه سبحانه مع علمه بصنائعِه المُحكمةِ فيه، مُقرِّرًا أحوالَ بدايتِه التي لا يسوغُ معها إنكارُ إعادتِه؛ لأنَّها أدلُّ على أنَّه لا مانعَ منها أصلًا[2].

بَلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُهُ:

جاءَ الاستفهامُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ لتقرير أنَّ أحْوالَ ابْنِ آدَمَ في يَدِ اللّه التي إذا تُؤمِّلتْ لم يُنكِر معها جَوازَ البعثِ عاقلٌ[3]. فهذا الاستفهامُ علَّةٌ وبيانٌ للإنكارِ المَسوقِ للاستدلالِ بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ﴾ الذي جُعِلَ تكريرًا وتأييدًا لمضمونِ قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾[4].

إنشاءُ الإنسانِ من نُطفةٍ برهانٌ على إعادةِ الإنسانِ من تُربةٍ

لطائفُ حذفِ النّونِ في فعلِ ﴿يَكُ﴾:

حذفَ القرآن المجيد نونَ ﴿يَكُ﴾ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ للتَّخفيف[5]، ولا يمنع ذلك من وجود لطائف أخرى، منها الإعلام بأنَّ الأمرَ في هذه النتيجةِ العُظْمى ضاقَ عن أقلِّ شيءٍ يمكنُ الاستغناءُ عنه كراهيةَ التَّمادي من الموعوظِ على ما وُعظَ لأجلِه فيحصلُ له الهلاكُ، وإشارةٌ إلى مهانةِ أصلِه وحقارتِه[6].

التّذكيرُ بحقارةِ المنشأِ لنفي الاختيالِ والتَّجبُّرِ والاعتدادِ بالنَّفسِ

ومنها مراعاةُ جانبِ العَجَلةِ التي طُبعتْ به السورةُ، وتكررَّتْ مظاهرُه في أكثَرَ من موطنٍ، فحذِفَت نونُ (يَكُنْ) للفراغِ من الفعلِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 69، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 166.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 116.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 407.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 366 - 367.
(5) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 465.
(6) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 116.

بسرعةٍ، وهو الملائمُ لجوِ العَجَلةِ في السورةِ. ومنها: أنَّ الإنسانَ لا يكونُ إنسانًا من المَنيِّ وحدَه حتَّى يُراقَ في الرَّحم، ويلتقي بالبويضةِ، فبالمَنيِّ والبويضةِ يكتملُ الخَلْقُ، وبهما يتمُّ الإنسانُ، أمّا المَنيُّ وحدَه، فلا يكونُ منه إنسانٌ، وكذلكَ البويضةُ وحدَها؛ فنقَصَ من فعلِ الكونِ إشارةً إلى أنَّ التطويرَ المذكورَ في هذه الآياتِ لا يكونُ إلّا بهما معًا، أمّا المَنيُّ فهو جزءٌ من السببِ. ولم يُتِمَّ الفعلَ إشارةً إلى ذلك، وهذا من مواطن الحذف البديعة[1].

نُكتةُ مجيء اسمِ ﴿يَكُ﴾ ضميرًا مُستتِرًا:

خلقُ الإنسانِ أهونُ من خلقِ السّماواتِ والأرضِ

آثَرَ القرآن المجيد عدمَ ذِكْرِ اسم ﴿يَكُ﴾ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ فلم يَقُلْ: (ألم يكُ الإنسانُ نطفةً)، وذلك لأنَّ السّياقَ جاء في تحقيرِ الإنسانِ المُكذِّب؛ فنسبَ عدمَ إظهارِ لفظه، وكذلك للإشارةِ إلى أنَّ خَلْقَ الإنسانِ أمرٌ هيِّنٌ لا يكادُ يستحقُّ الذِّكرَ، كما في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: 57].

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ ﴿نُطْفَةً﴾:

تذكيرُ مُنكِرِ البعثِ بأنَّهُ كانَ شيئًا يسيرًا جدًا

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ عن أصلِ خلقِ الإنسانِ بلفظِ: ﴿نُطْفَةً﴾، والمُرادُ بها قطرةُ ماءٍ تُمْنَى، والنطفةُ: الماءُ القليلُ، يُقال: نَطَفَ الماءُ: إذا قَطَرَ؛ أيْ: ألم يكُ ماءً قليلًا في صلبِ الرَّجلِ وترائبِ المرأةِ[2]. ففي التَّعبيرِ بالنُّطْفَةِ إشارةٌ إلى أنَّهُ كانَ شيئًا يسيرًا جدًا[3].

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها:

﴿مِّن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ بيانيَّةٌ؛ أيْ: لبيانِ جنسِ الإنسانِ وأصلِ خلقِه، وتحتمل أن تكون لابتداءِ الغاية[4].

(1) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 235.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 738، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 117.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 116.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 326.

دلالةُ التعبيرِ بالفعلِ ﴿يُمْنَىٰ﴾:

خـلـقُ الإنـسـانِ مُـقـدَّرٌ بـالـعـزّةِ الإلهيةِ

عبرَّ النَّظمُ بالفعلِ ﴿يُمْنَىٰ﴾ لما فيه من الدّلالةِ على تقديرِ شيءٍ ونفاذِ القضاءِ به[1]. والمَنيّ يخرج دفْقًا، لا يتوقَّفُ إذًا بدأ[2]. وفي قولِه: فيهِ ﴿مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ ثَلاثَةُ أوْجُهٍ: أحَدُها أنَّ مَعْنى يُمْنى: يُراقُ، والثّاني بمَعْنى: يَنْشَأُ ويَخْلُقُ، والثّالِثُ أنَّهُ بمَعْنى: يَشْتَرِكُ؛ أيِ: اشْتِراك ماءِ الرَّجُلِ بماءِ المَرْأةِ[3]. ورجَّح بعضُهم أنَّ المعنى: تقدّر بالعزّة الإلهية ما لم يكن منه، وقيل: الأظْهَرُ قَولُ بعضِ المُفسِّرينَ أنَّهُ مُضارِعُ (أمْنى) الرَّجُلُ فيَكونُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الواقعة: 58][4].

دلالةُ بناءِ فعلِ ﴿يُمْنَىٰ﴾ للمفعولِ:

إزالـــةُ وهْـــمِ الإنـســانِ بـأنَّ إنـــزالَ المَـنـيِّ بإرادتِهِ

بُني فعلُ ﴿يُمْنَىٰ﴾ للمفعول؛ لبيان أنَّ اللّه سبحانه سَبَّبَ لِلإنسانِ المُعالجةَ في إخراجِها بما ركَّبَ فيهِ من الشَّهوةِ، وجَعَلَ لهُ من الرّوحِ التي يُسرُّها لقضاءِ وطَرِهِ منها حَتّى إنَّ وقْتَ صَبِّها في الرَّحِمِ انصَبَّتْ منهُ بغيرِ اختيارِهِ حتّى كأنَّهُ لا فعلَ لهُ فيها أصْلًا[5]. بل الأمرُ كلُّه للّه تعالى، إذا قدَّرَ الخلقَ على نسمةٍ فلا دخلَ للإنسانِ في إنشائها حتَّى في أهونِ خصائصِ الإنشاءِ.

توجيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ:

التذكيرُ للمَنيِّ، والتّأنيثُ للنُّطْفَةِ

اختلف القراءُ في قوله تعالى: ﴿مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ فقرأ يعقوبُ وحفصٌ وهشام بخلاف عنه، بالياء على التّذكير. وقرأ الباقونَ بالتّاء على التّأنيث ﴿مَّنِيٍّ تُمْنَىٰ﴾[6]. فمَنْ قرأ بالياءِ فلعودِ الضَّميرِ على المَنّي؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مني).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (منو - منى).
(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 160.
(4) الرّاغب، مُفردات القرآن: (منى)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 367.
(5) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 117.
(6) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 394.

أيْ: يُقَدَّرُ خَلْقُ الإنْسانِ مِنهُ، ومَن قرأ بالتاءِ فلتأنيث النطفة، على تَقْديرِ: ألَمْ يَكُ نُطْفَةً تُمْنى من المَنيِّ[1].

نوعُ حرفِ ﴿ثُمَّ﴾ ودلالَتُه:

اجتماعُ التّراخي الزّمانيّ والرُّتبيُّ حاصلٌ

أفادَ التّعبيرُ بحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أنَّ هناك تراخيًا زمنيًّا حتى يصيرُ المَنيُّ بقدرةِ اللّه عَلَقَةً[2]، كما دلَّ على التّراخي الرُّتبيّ فإنَّ كونَه علقةً أعجبُ من كونِه نطفةً؛ لأنَّه صارَ عَلَقةً بعد أنْ كان ماءً، فاختلطَ بما يفرزُه رحمُ الأُنثى من البويضاتِ، فكان من مجموعهما علقةً[3].

نُكتةُ دخولِ فِعلِ الكَونِ مع طورِ العَلَقَةِ:

تحقُّقُ خَلْقِ الإنسانِ بقدرةِ اللّه

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بفعلِ الكونِ في قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ للدلالةِ على التَّحقُّقِ والثَّباتِ وتوكيدِ أنَّ هذا التّحوُّلَ بقدرةِ اللّه وحدَه، وأنَّهُ تعالى هو القادرُ على الإعادةِ كَرَّةً أخرى. و﴿كَانَ﴾ بمعنى: صار، وإيثار ﴿كَانَ﴾ على صار لسرعة تحويل المَنيِّ فى آخر مُدَّته إلى عَلَقَةٍ في يُسْرٍ دون إبطاءٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى طواعية الكائنات أمام قدرةِ اللّه تعالى[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردَةِ ﴿عَلَقَةً﴾:

الإنسانُ مُتعلقٌ بالعاجلةِ منذ أن كان في الرَّحمِ علقةً

استعملَ القرآن المجيد لفظَ عَلَقَةٍ في قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، إشارةً إلى تعلُّقِ الدَّمِ الجامدِ الذي منه منشأ الإنسانِ بجدار الرَّحَم، إذِ العَلَقُ: التّشبّث بالشّيء، يُقال: عَلِقَ الصّيدُ في الحبالة، والعَلَقُ: الدّم الجامد؛ ومنه: العَلَقَةُ التي يكون منها الولد. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العَلَق: 2][5]، والمُرادُ تصييرُ

(1) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني، ص: 491، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 738.
(2) فرغلي، من أسرار البلاغة في سورة القيامة، ص: 714.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 367.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 327.
(5) الرّاغب، مُفردات القرآن: (علق).

النُّطْفَةِ دَمًا أَحْمَرَ عَبيطًا شَديدَ الحُمْرَةِ والغِلْظَةِ[1]، يكونُ منه منشأُ الإنسانِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهُ منذ النشأةِ الأولى بحاجةٍ إلى ما يتعلَّقُ به، وأنّه مُتعلِّقٌ بأسباب الحياة، وهو ما يُناسب المذكور في السّورة من تعلُّقه بالعاجلة وإيثارها على الآخرة، وأنّه لم يُعمل عقلَه في ترك التَّعلُّق بالحياة الدنيا؛ بل بقي قائمًا على شهوته مُتعلِّقًا بشُبهته.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

دلَّتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ على الترتيبِ والتَّعقيبِ والسرعةِ، ففيها بيان أنَّ قدرة اللّه تعالى نافذة في العباد، سريعة الوقوع، فإذا تعلَّقتْ إرادتُه سبحانه بأمرٍ فلا رادَّ لقضائه، وكذلك أمر البعثِ والقيامةِ، فمهما تطاولتِ الآمادُ فلا محيصَ من النشأةِ الأخرى، للحسابِ والعقابِ، فإنَّ ذلك من تمامِ حكمتهِ تعالى.

وما أمرُ الخَلْقِ إلّا كلمحِ البصرِ

نُكتةُ إضمارِ الفاعلِ وحذفِ المفعولِ:

أُضمر ذِكْرُ فاعل (خلق) و(سوى)، وحُذف المفعولُ للعِلْم بهما، وهو مناسبٌ لحذفِ فاعلِ التَّرك، وكل ذلك مناسبٌ لجوِّ العَجَلَة في السّورة[2].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

جاءتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ للدّلالةِ على التّرتيبِ والتّعقيبِ والسُّرعةِ، ففيها بيانٌ لطلاقةِ القدرةِ الإلهيّةِ على تسويةِ أعضاءِ الإنسانِ على خيرِ وجهٍ يستفيدُ منه. ففيه إيذانٌ بسرعةِ خلقِ اللّه وتكوينه للأجنَّةِ في الأرحامِ استجابةً لأمره التّكوينيِّ واطّرادًا لسُنَّته في الإيجادِ. وعطفُ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ على (خَلَقَ) بالفاء دليلٌ على أنَّ التّسويةَ تكون مصاحبةً للخَلْقِ والتَّكوينِ؛ أيْ: خلقَه سويًّا مُعدّلاً في فورٍ واحدٍ[3].

الخلقُ والتَّسويةُ في وقتٍ واحدٍ شديدِ التّقاربِ

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 117.
(2) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 235.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 327.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ (سَوَّى):

امتنانُ الله على الإنسانِ بكمالِ أعضائِهِ

عطفَ القرآن المجيد الفعلِ (سَوَّى) على الفعلِ (خَلقَ)؛ لأنَّ الخلقَ هو مطلقُ الإنشاءِ، وأمّا التسويةُ فتدلُّ على الاستقامةِ والاعتدالِ[1]، يُصانُ فيه الخلقُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ من حيث القَدْرُ والكيفيَّةُ[2]. وهي تدلُّ كذلك على إكمالِ النقصِ وكمالِ النُّضجِ[3]. فسَوّاهُ تَسْوِيَةً، وعَدَّلَهُ تَعْديلًا، بجَعْلِ الرّوحِ فيهِ[4]، فالتَّسْوِيَةُ: جَعْلُ الشَّيْءِ سَواءً؛ أيْ: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا؛ والمُرادُ هَهُنا بقوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾؛ أيْ: فجَعَلَهُ جَسَدًا من عَظْمٍ ولَحْمٍ[5]، وسَوّى تلكَ الأعْضاءَ لأعمالِها وعدلها[6]. ففيها تذكيرٌ للمُكذِّبِ العاصي بما أنعم اللّه عليه من كمالِ الأعضاء وتمامها، فلا ينبغي له بعدَ ذلك أنْ يتبجَّحَ ويُنكرَ البعثَ.

نوعُ الفاءِ في ﴿فَجَعَلَ﴾ ودلالتُها:

تحديدُ جنسِ الإنسانِ يكونُ في مراحلِهِ الأولى

العطفُ بالفاءِ في ﴿فَجَعَلَ﴾ سَمَةٌ من سماتِ الإعجاز العلميِّ في القرآن العظيم؛ لأنَّ الطِّبَّ الحديثَ اكتشفَ أنَّ كونَ المقذوفَ في الرَّحم ذكرًا أو أنثَى يبدأُ من اللحظةِ الأولَى للقاءِ الزوجيْن. وقد أشار النَّظْم إلى هذه الحقيقةِ العلميَّةِ بعطفِ جعلِ التنويع - ذكورًا وإناثًا - بالفاء التي تفيد الفوريَّة والتَّرتيب[7].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجَعْلِ دونَ الخَلقِ:

الجعلُ إعطاءُ الصِّفةِ الوظيفيَّةِ لكلٍّ من الذَّكرِ والأُنثى

عطفَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ الجَعلِ على فعلَيْ الخلقِ والتسويةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾، وذلك لأنَّ الخَلقَ هو إيجادُ المخلوقِ على الصورةِ التي أرادَها اللّه سبحانه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(2) الرّاغب، المُفردات: (سوا).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوى).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 117.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 368.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 371.
(7) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 327.

له، أمّا الجعلُ، فهو إعطاءُ المخلوقِ الصِّفةِ الوظيفيّة التي يقوم بها، فالخلقُ إبداعٌ، والجعلُ تسخيرٌ وتسييرٌ لهذا المخلوقِ المبدَع. وهذا يعنى أن خلقَ المرأةِ والرَّجلِ يجري على نسقٍ واحدٍ، ويقعُ على صورةٍ واحدةٍ، حتَّى إذا اكتملَ خلقُ الإنسانِ، انقسمَ إلى مخلوقيْنِ؛ أحدُهما: ذَكَرٌ، والآخرُ: أُنثى[1].

نوع (مِنْ):

(مِنْ) في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ بيانيَّةٌ؛ أيْ: لبيانِ أصل الزوجيْنِ، وتحتمل أن تكون لابتداءِ الغايةِ[2].

نُكتةُ تقديمِ شِبهِ الجُملةِ:

قدَّمَ القرآن المجيد شِبْهَ الجملةِ ﴿مِنْهُ﴾ في قولِه: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ للاهتمام بتوجيه الأنظار في إلى أصل الزَّوجيْنِ، فمِن هذا المَنيِّ تكونَ نشأة الجنسيْنِ.

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ ودلالتُه العلميّةُ:

سبقُ القرآنِ لتحديدِ المسؤولِ عن جنسِ المولودِ

والهاء في ﴿مِنْهُ﴾ تعود على المَنيّ، فمِن ماءِ الرجلِ يكونُ الذَّكرُ والأنثَى، وليس للأنثَى فيه دخلٌ، ولم يكن هذا الأمرُ معلومًا حتى العصر الحديث، فقد ثبتَ أنَّ الذَّكرَ هو المسؤولُ عن الجنسِ وليس الأنثَى. وقد ذكرَه القرآنُ الكريمُ قبل اكتشافِ قوانينِ الوراثةِ وعلم الأجنّةِ، فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾؛ فأعادَ الضَّميرَ على المَنيّ، ولو أعادَه على العَلَقةِ لقالَ: (مِنها). ولم يُعدْهُ على النُّطفةِ مع أنَّها هي القطرةِ من المَنيِّ، لئلّا يحتملُ إعادته على العلقةِ[3]، وأشارَ غير واحدٍ من المُفسِّرينَ إلى احتمالِ عودِ الضَّمير على

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1347.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 327.
(3) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 236.

الإنسانِ، والمعنى: فجعل من هذا الإنسانِ بعدما سوّاه بشرًا أولادًا، ذكورًا وإناثًا[1].

معنَى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ و﴿ٱلذَّكَرَ﴾ و﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾:

جاءتْ ألفاظُ ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ و﴿ٱلذَّكَرَ﴾ و﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ معرَّفةً باللّام، واللّامُ فيها جميعًا لجنسِ الإنسانِ؛ فالمُرادُ بـ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ القرينان اللَّذان لا يمكنُ الانتفاعُ بأحدهما إلّا بالآخرِ، ثم بيَّنَهُما بقوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ وهما متباينان في الطّباع مختلفان في أوصاف الأعضاء والآلات والمتاع، فإنَّ تمييزَ ما يصلحُ للذَّكرِ وما يصلحُ منه للأُنثى أشدُّ وأخفَى من تمييزِ ترابِ الميِّتِ من ترابِ الأرضِ[2].

عـمـومُ جنسِ البشرِ من مَنيِّ الرَّجلِ

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الزَّوجيَّةِ:

عبَّرَ القرآن المجيد بلفظِ ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ عن الذَّكرِ والأُنثى، وسَمَّى كلًّا منهما زوجًا، إمّا بمعنى: نوعٍ أو صنفٍ، وإمّا بمعنى احتياجِ كلٍّ منهما للآخرِ ليُكمِّلَ أحدُهما نقصَ الآخرِ وحاجتَه[3]، فالذي قدر على هذا الخلق لا يُعجزه إعادةُ خلقِ كلِّ واحدٍ منهما[4].

كـلُّ واحـدٍ من الـزَّوجيْنِ يُكملُ نـقـصَ الآخـرِ وحاجتَه

نُكتةُ تقديمِ الذَّكرِ على الأُنثَى:

جاءَ تقديمُ الذَّكرِ على الأُنثى في قوله: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾؛ لأنَّ الأصلَ في الذكرِ والأنثى هو ماءُ الرجلِ، فقُدِّمَ الأصلُ على الفرعِ، ولأنَّهُ أسبقُ في الخلقِ، والأنثى مخلوقةٌ منه، كما في قولِه: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ [الأعراف: 189].

الـذَّكـرُ أسبـقُ في الـوجـودِ من الأُنثى

بَلاغَةُ طباقِ الإيجابِ:

جاءَ طباقُ الإيجاب بين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾، لما بينهما من شبه

الـقـادرُ على تـنـويـعِ الـخَـلْـقِ أوَّلًا، قـادرٌ على إعادتِهِ ثانيًا

(1) مَكّيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 12/ 7898.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 118.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 327.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 368.

التَّضادِ، عليه قامت دلالة المقامِ أصلاً، وليس هي حليةُ لفظٍ ولا حليةُ معنًى، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ القادرَ على تنويعِ الخَلْقِ في حالِ النَّشأةِ الأولى قادرٌ على إعادةِ الخَلقِ كما هو، بل هو أهونُ عليه، كما في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الرّوم: 27].

موقعُ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

الإحياءُ والبعثُ بعدَ الموتِ أقربُ من الإحياءِ من العَدَمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ واقع موقعَ النتيجةِ من الدليلِ؛ لأن خلقَ جسمِ الإنسانِ من عدمٍ، وهو أمرٌ ثابتٌ بضرورةِ المشاهدةِ، أحقُّ بالاستبعادِ من إعادةِ الحياةِ إلى الجسمِ بعد الموتِ، سواءٌ بقيَ الجسمُ غيرَ ناقصٍ أو نَقُصَ بعضُه أو معظمُه فهو إلى بثِّ الحياةِ فيهِ وإعادةِ ما فني من أجزائِه أقربُ من إيجادِ الجسمِ من عدمٍ[1].

بَلاغةُ التَّذييلِ في الاستفهامِ:

تقريرُ قدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتى وبعثِهم للحسابِ والعقابِ

جاءَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ استفهامًا تقريريًّا؛ لأنَّ هذه السورةَ قد افْتُتحتْ بإنكار أن يحسبَ المشركونَ استحالةَ البعثِ، ثمَّ تسلسل الكلامُ في ذلكَ بإثباتِ قدرةِ اللهِ على البعثِ والتهديدِ، ومرورًا بالوعيد لِمَن يستبعدُ ذلكَ اليومِ ويستهزئ به، فضلًا عن بيانِ ما يترتَّب على الإيمانِ والكُفرِ من النَّعيم والجحيم، والاستدلالُ بقدرة اللهِ على إنشاءِ الإنسانِ من نُطفةٍ حقيرةٍ على قدرته ﷻ على البعث والإحياءِ مرَّةً أخرى؛ لأنَّ القادر على البدء قادرٌ على الإعادة. فجاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ تذييلًا لكلِّ ما سبقَ؛ لأنَّها مُؤكّدةٌ لمضمونِ ما تقدَّم من الاستدلالِ على البعثِ والقدرةِ على ذلك من اللهِ العَليِّ القديرِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 368.

(2) فرغلي، من أسرار البلاغة في سورة القيامة، ص: 714.

بلاغةُ الكنايةِ في الاستفهامِ:

ثـقـةُ المُتـكـلِّـمِ بـأنَّ المخاطَبَ لا يستطيعُ الإنكارَ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إنكارٌ للمَنْفيِّ إنكارُ تقريرٍ بالإثباتِ؛ وهذا غالب استعمال الاستفهام التّقريريّ أن يقع على نفي ما يُراد إثباتُه ليكون ذلك كالتّوسعة على المُقرَّر إنْ أراد إنكارًا كنايةً عن ثقة المُتكلِّم بأنَّ المُخاطَب لا يستطيعُ الإنكار[1].

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البَعيدِ:

الإشـــارةُ إلى عَـظَـمَـةِ الـلـه سبحانه وجلالِه عـن تـشـكـيـكِ المُكذِّبينَ

عبَّرَ القرآن المجيد باسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ عن الخالقِ تعالى، وأتى باسم الإشارةِ للبعيدِ للدلالةِ على عُلوِّه وسُموِّه وعَظَمَته تعالى، والمُرادُ: أليسَ ذلكَ العظيمُ الشَّأنِ الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع[2]، فخَلَقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ من ماءٍ مَهينٍ[3] بقادرٍ على إحياءِ الموتى وبعثهم للحسابِ والعقابِ كما تقتضيه عظمتُه وحكمتُه؟.

فائدةُ الباءِ في جوابِ (لَيْسَ):

توكيدُ قدرةِ الله على إحياءِ الموتي دفـعًـا لـشُـبَـهِ المُكذِّبينَ

جاءتِ الباءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ حرفَ توكيدٍ، إذْ إنَّ الباء تدخلُ على أخبار (ليس) و(ما) و(لا) و(كان) المنفية، لتأكيد النفي، كما في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: 8]. فالباءُ تُستعملُ لتأكيدِ النَّفي، كما تُستعملُ اللّامُ في تأكيد الأثبات[4]. فالمُرادُ بها هَهُنا توكيدُ قدرةِ اللّه سبحانه على إحياءِ الموتى، وليست قدرتُه تعالى في موضعِ شكٍّ فتحتاجُ إلى توكيدٍ، ولكنَّ عقولَ المُكذِّبينَ المُشكِّكينَ هي التي تحتاجُ إلى توكيدٍ لما رانَ عليها من الضَّلالِ والزَّيغِ، فهذه هي القضية التي نصبت لها تلك الأدلة[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 368.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 69.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 466.
(4) السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 260.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1347.

نُكتةُ تنكيرِ (قادِرٍ):

التّنكيرُ للتّعظيمِ والتّفخيمِ

جاء لفظ (قادر) نكرةً في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ للتعظيمِ والتّفخيم؛ إذ المعنى: أليس هذا الخالِقُ عظيمُ القُدرةِ المُسَوّي هو الإلَهُ الأعظَمُ الذي قدرَ عَلى هذه الإنشاءاتِ وصنعَ هذهِ الصَّنائعَ المُتقَنَةَ التي لا يقدِرُ غيرهُ على شَيْءٍ مِنها[1]. فدلَّ ذلك على طلاقةِ القُدرةِ والعَظَمةِ.

المقارنةُ بين التقريرِ في نهايةِ السّورةِ والإثباتِ في صدرِها:

إحياءُ الموتى أصعبُ وأعسرُ من تسويةِ البنانِ في القياسِ العقليِّ

جاءَ إثباتُ القدرةِ هَهُنا بأسلوبِ الاستفهامِ التَّقريريِّ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ على سبيلِ التَّقريرِ، بينما جاءَ في أوائل السّورة على سبيل الإثبات في قولِه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، وذلك لأنَّ إحياءَ الموتى أصعبُ وأعسرُ من تسويةِ البنانِ في القياس العقليِّ، وإن كانت الأفعال بالنِّسبة إلى اللّه كلها سواء، فجاء في آية إحياء الموتى بأسلوب التقرير الاستفهاميِّ الدّالِّ على الأهميّة، وأكَّد القدرة بالباء فقال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ في حين جاء بالإثبات في تسوية البنان، فقال: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، ثم إنه حذف الفعلَ وصاحبَ الحالِ، وجاء بالحالِ وحدها، فقال: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ ولم يَقُلْ: (نجمعها قادرين على أنْ نسوي بنانه) فأخلاها من التّوكيد، في حين ذكر الجملة تامة هَهُنا، مؤكدة بالباء والتّنكيرِ عند الحديثِ عن إحياء الموتى، فدلَّ ذلك على الفرق بين المقامَيْن[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

عدَّى القرآن المجيد لفظ (قادر) بحرفِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ الذي يُفيدُ الاستعلاءَ[3]؛ فجاءَ استعمالُه على أصلِ معناه؛ لبيانِ تمامِ القدرةِ؛ فهو سبحانه قادرٌ على إحياءِ الموتى وبعثهم.

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 118.
(2) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّةٌ، ص: 236.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 230.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدَرِ المؤوّلِ:

لا تخلو لمحةٌ من لمحاتِ الدَّهرِ من قُدرتِهِ سبحانه على الإحياءِ في الدنيا والآخرةِ

استعملَ القرآن المجيد المصدرَ المؤولَ ﴿أَن﴾ والفعلَ المضارعَ في قولِه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لما فيه من الدلالةِ على الزمنِ فضلًا عن الدلالةِ على الحدثِ، لما في ذلكَ من الدلالةِ على تجدُّدِ الإحياءِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، إذ لا تخلو لمحةٌ من لمحاتِ الدَّهرِ من قدرتِهِ سبحانه على الإحياءِ في الدنيا والآخرةِ. وتأكيد الكلام بحرف ﴿أَن﴾ لردِّ إنكارِهم أنْ يمكن إحياءُ اللّه الموتى؛ لأنَّهم لما أحالوا ذلك فقد أنكروا عمومَ قدرته تعالى على الإحياءِ. ولهذه النكتة جيء في القدرة على إحياء الموتى بوصف (قادرٍ)[1].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

جاءتِ اللّامُ في لفظةِ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في قوله: ﴿يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لإفادةَ العمومِ، بعد جريانِ أسلوبُ الكلامِ على خصوصِ الإنسانِ الكافرِ أو خصوصِ كافرٍ مُعيَّنٍ[2].

بَلاغةُ الطِّباقِ بينِ الإحياءِ والإماتَةِ:

شدَّةُ المُفارقةِ بين الإحياءِ والإماتةِ لـفـتٌ لأنـظـارِ المُكذِّبينَ خاصَّةً

جاءَ الطِّباقُ بين الإحياءِ والإماتَةِ في قولِه تعالى: ﴿يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لما بينهما من التَّضادِّ، ففيه لفتٌ لأنظارِ المُكذِّبينَ خاصَّةٍ إلى ما بينهما من شدَّةِ المفارقةِ، ومع ذلك فإنَّه سبحانه قادرٌ على الإحياءِ كما هو قادرٌ على الإماتةِ في الوقتِ نفسِه، فلا يعجزهُ شيءٌ في السماواتِ ولا في الأرضِ؛ فدلَّ ذلك على قدرته على البعثِ يومَ القيامةِ.

بَلاغةُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ في آخرِ السّورَةِ الكريمةِ:

مناسبةُ ردِّ القدرةِ على الإحياءِ في نهايةِ السّورةِ على إنكارِهِ في مطلعِها

رجع آخرُ السورةِ على أوَّلها أتمَّ رجوعٍ، والتأم به أتمَّ التئام، فتمت معانيها أعظم تمام بجمعِ العظامِ وإيجادِ القيامِ ليومِ التَّغابُنِ والزِّحامِ[3]، فجاء في هذا الختامُ بمحسِّن ردِّ العجزِ على الصَّدرِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 26/ 65.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 369.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 21/ 118.

فإنَّ السورةَ افْتُتِحتْ بإنكارِ أن يحسبَ المشركونَ استحالةَ البعثِ، وتسلسلَ الكلامُ في ذلك بأفانينَ من الإثباتِ والتَّهديدِ والتَّشريطِ والاستدلالِ، إلى أن أفضَى إلى استنتاجِ أنَّ اللهَ قادرٌ على أن يُحييَ الموتَى، وهو المطلوبُ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"